

نظرة تاريخية
في حدوث المذاهب الاربعة
— الحنفيّ والمالكي والشافعي والحنبلي —
وانتشارها

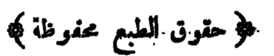
بقلم الفقير اليه تعالى



القاهرة

١٣٤٤





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على سيد المرسلين * وعلى آله وصحبه والتابعين * وسلمَ تسليما كثيرا

وبعد فان الشريعة الاسلامية جاءت بسعادتي الدنيا والآخرة لبني البشر جميعاً ، وقد انتقل المصلح الاعظم ﷺ الى الرفيق الأعلى تاركاً للناس ما إن تمسكوا به لن يضلّوا : كتابَ الله وسنّةَ رسوله ، لان فيهما تبيانَ كل شيء من الكليات العامة وإرشاداً الى أصلين آخرين من أصول التشريع وهما الاجماع والقياس * وقد اعتمد على هذه الاصول الاربعة المجتهدون من الصحابة رضي الله عنهم ومن التابعين ، واتخذوا ذلك ينبوعاً تكوّن منه الفقه

الاسلامي ، وغايةً اتجهتْ اليها أنظار جميع المجتهدين في الفروع

ولما كانت المذاهب الاربعة هي التى عمَّ انتشارها في العالم الاسلامي وكثر عدد الآخذين بها والمتبعين لها ، رأى الاستاذ العلاّمة المحقّق صاحب السعادة أحمد تيمور باشا — حفظه الله ونفعَ الامةَ به — أن يضع بين أيدي القرّاء خلاصة تاريخية لكيفية حدوث هذه المذاهب الاربعة وانتشارها في الاقطار وذِكرِ مَن انتشرت على أيديهم ، مستمداً ذلك من أوثق المصادر وأصدقها . وقد تفضل بهذا البحث الممتع على مجلة الزهراء فنشر فى أوائل سنتها الثانية . ثم رأيتُ أن أفرده فى رسالة مستقلة تسهيلا لطالبيه وتعميما لنفعه

القاهرة : ١٥ رجب ١٣٤٤

محب الدين الخطيب

نظرة تاريخية

فى حدوث المذاهب وانتشارها

ونريد بها الاربعة : الحنفيّ والمالكيّ والشافعيّ والحنبلى المعمول بها عند جمهور المسلمين الى اليوم ، وهي التى كتب لها البقاء والتغلّب على سواها من مذاهب أهل السنّة كمذهب سفيان الثوريّ بالكوفة والحسن البصريّ بالبصرة والاوزاعيّ بالشام والاندلس وغيرهما وابن جرير الطبرىّ وأبي ثور ببغداد وداود الظاهريّ في كثير من البلدان وغير ذلك من مذاهب فقهاء الامصار

وكانت الفتيا قبل حدوث هذه المذاهب تؤخذ فى عصر الصحابة عن القراء منهم ، وهم الحاملون لكتاب الله العارفون بدلالاته [1] فلما انقضى عصرهم وخلف من بعدهم التابعون اتبع

---

(١) عن ابن خلدون

أهل كلّ مصر فتيا من كان عندهم من الصحابة لا يتعدّونها الا في اليسير مما بلغهم عن غيرهم . فاتبع أهل المدينة في الاكثر فتاوي عبد الله بن عمر وأهل الكوفة فتاوي عبد الله بن مسعود وأهل مكة فتاوي عبد الله بن عبّاس وأهل مصر فتاوي عبد الله بن عمرو بن العاص (١) .

وأتى بعد التابعين فقهاء الامصار كأبي حنيفة ومالك وغيرهما ممن ذكرناهم ومن لم نذكرهم فاتبع أهل كلّ مصر مذهب فقيهه في الاكثر ثم قضت أسباب بانتشار بعض هذه المذاهب في غير أمصارها وبانقراض بعضها ، فلم يطل العمل بمذهب الثوري والبصريّ لقلة اتباعهما وبطل العمل بمذهب الاوزاعيّ بعد القرن الثاني وبمذهب أبي ثور بعد الثالث وابن جرير بعد الرابع (٢) كما انقرض غيرها من المذاهب ، الا الظاهريّ فقد طالت مدته وزاحم الاربعة بل جعله المقدسيّ في أحسن التقاسيم رابع المذاهب في زمنه أي في القرن الرابع بدل الحنبليّ وذكر الحنبليّة في أصحاب الحديث وعدّه ابن فرحون في الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمنه أي في القرن الثامن ثمّ درس بعد

---

(١) عن المقريزي والديباج
(٢) عن الديباج

ذلك ولم يبق الاّ الاربعـة ومذاهب أخرى خاصةً بطوائف من المسلمين لايعدّها جمهورهم من مذاهب أهل السنّة ولهذا لم نتعرض لذكرها . وذكر ابن خلدون أنّ الظاهريّ درس بدروس أئمته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الـكتب وربّما يعكف متكلّفو انتحاله عليها لاخذ فقههم منها فلا يحلون بطائل ويصيرون الى انكار الجمهور عليهم ، ولم يبق الا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز



المذهب الحنفي

هو أقدم الاربعة وصاحبه الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان الكوفيّ رضي الله عنه المولود سنة ٨٠ والمتوفى ببغداد سنة ١٥٠ على الاصحّ . وكان منشأ هذا المذهب بالكوفة موطن الامام ثم انتشر في سائر بلاد العراق ويقال لاصحابه أهل الرأي لأنّ الحديث كان قليلا بالعراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه . ولامامهم مقام في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعي[1] . ويذكر أصحاب طبقات الحنفيّة أن هذا المذهب شاع في بلاد بعيدة ومدن عديدة ، كنواحي بغداد ومصر والروم وبلخ وبخارى وفرغانة وبلاد فارس وأكثر بلاد الهند والسند وبعض بلاد اليمن وغيرها ، وفي طبقات للحنفيّة عندنا نرجح أنها (المرقاة الوفيّة للفيروزاباذي) أنَّ أصحاب أبي حنيفة الذين دوّنوا مذهبه أربعون رجلا منهم أبو يوسف وزفر وأنَّ أول من كتب كتبه أسد بن عمرو . وفيها أيضاً أن نوح بن أبي مريم عرف بالجامع لأنه أول من جمع فقه أبي حنيفة في قول ، وقيل

---

(١) من ابن خلدون .

لقب بذلك لجمعه بين علوم كثيرة .

ثم لما قام هارون الرشيد في الخلافة وولى القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة بعد سنة سبعين ومائة أصبحت تولية القضاة بيده فلم يكن يولّى ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الى أقصى عمل إفريقية الا من أشار به ، وكان لا يولي الا اصحابه والمنتسبين الى مذهبه فاضطرت العامة الى أحكامهم وفتاواهم وفشا المذهب في هذه البلاد فشوا عظيما كما فشا المالكي بالاندلس بسبب تمكن يحي بن يحي بن كثير من الحكم المنتصر حتى قال ابن حزم « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان : الحنفي بالمشرق ، والمالكيّ بالاندلس » (١)

ولم يزل هذا المذهب غالبًا على هذه البلاد لايثار الخلفاء العباسيين الحنفية بالقضاء حتى تبدلت الاحوال وزاحمته المذاهب الثلاثة كما سيأتي في الكلام عليها . وبلغ من تمسكهم به في القضاء أن القادر بالله استخلف مرة ابا العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعيّ عن ابى محمد بن الأكفاني الحنفيّ قاضي بغداد باشارة أبى حامد الاسفرايني فاجيب اليه بغير رضا الاكفانى وكتب

(١) عن المقريزي ونفح الطيب وبغية الملتمس

أبو حامد الى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان : ان الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية . فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن فاضطر الخليفة الى جمع الاشراف والقضاة وأخرج اليهم رسالة تتضمن أن الاسفرايني ادخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والامانة وكانت على أصول الدخل والخيانة فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزي الحكم بالحضرة من الفساد والفتنة والعدول بامير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرف البارزي وأعاد الامر الى حقه وأجراه على قديم رسمه وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز وتقدم اليهم أن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقا ولا يردوا عليه سلاماً وخلع على أبي محمد الاكفاني وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة وظهر التسخط عليه والانحراف عنه وذلك في سنة ٣٩٣ واتصل ببلاد الشام ومصر (١)

وكان الغالب على إفريقية السنن والآثار الى أن قدم عبدالله ابن فرّوخ أبو محمّد الفارسيّ بمذهب أبى حنيفة ثمّ غلب عليها لمّا

---

(١) عن المقريزي

ولّى قضاءها أسد بن الفرات بن سنان [١] ثمّ بقي غالباً عليها حتّى حمل المعزّ بن باديس أهلها على مذهب مالك [٢] وهو الغالب الى اليوم على أهلها الاّ قليلاً منهم يقلّدون المذهب الحنفيّ . وفى الديباج لابن فرحون أنّ الحنفيّ ظهر ظهوراً كثيراً بافريقيّة الى قريب سنة ٤٠٠ فانقطع ودخل منه شيء ماوراءها من المغرب قديماً بالأندلس ومدينة فاس . وفي أحسن التقاسيم المقدسيّ أنّ أكثر أهل صقلّيّة حنفيّون وذكر أيضاً أنّه سأل بعض أهل المغرب « كيف وقع مذهب أبي حنيفة رحمه الله اليكم ولم يكن على سابلتكم قالوا : لمّا قدم وهب بن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ماحاز استنكف أسد بن عبدالله أن يدرس عليه لجلالته وكبر نفسه فرحل الى المدينة ليدرس على مالك فوجده

---

(١) من المقريزي . والمراد بافريقية مايشمل طرابلس وتونس والجزائر وجعلها بعضهم أقل من ذلك وتفصيل الخلاف فيها ليس هذا موضعه . ويستفاد من معالم الايمان أن ابن فروخ سمع من الامامين مالك وأبي حنيفة وكان اعتماده على مالك ولكنه كان يميل الى قول أهل العراق اذا ظهر عنده صوابه . وسمع ابن الفرات من مالك وأصحاب أبي حنيفة ونشر مذهب أهل العراق بافريقية لسبب ترك صاحب المعالم ذكره. وذكر ابن خلدون أنه كتب عن أصحاب أبى حنيفة أولا ثم إنتقل الى مذهب مالك .

(٢) من الكامل لابن الاثير وكانت ولاية المعز سنة ٤٠٧ وتوفي سنة ٤٥٣ .

عليلا فلمّا طال مقامه عنده قال له ارجع الى ابن وهب فقد أودعته علمي وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد وسأل هل يعرف لمالك نظير فقالوا فتىً بالكوفة يقال له محمّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . قالوا فرحل اليه وأقبل عليه محمّد اقبالاً لم يقبله على أحد ورأى فهماً وحرصاً فزقّه الفقه زقّاً . فلمّا علم أنّه قد استقلّ وبلغ مراده فيه سيّبه الى المغرب فلمّا دخلها اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعاً حيّرتهم ودقائق أعجبتهم ومسائل ماطنّت على أذن ابن وهب وتخرّج به خلق وفشا مذهب أبي حنيفة رحمه الله بالمغرب . قلت فلمَ لم يفش بالأندلس؟ قالوا لم يكن بالأندلس أقلّ منه هاهنا ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدي السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة؟ قالوا من الكوفة . فقال ومالك ؟ قالوا من المدينة قال عالم دار الهجرة يكفينا . فأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة وقال لا أحبّ أن يكون في عملي مذهبان . وسمعت هذه الحكاية من عدّة من مشايخ الأندلس » انتهى . قلنا وفي هذه القصّة ما لا يخلو من نظر فانّ وهب بن وهب هذا لا نعلم أحداً ذكره فيمن أخذ عن الامام مالك وانمّا الآخذ عنه عبدالله بن وهب وهو لم يرحل الى المغرب بل كان بمصر ومات بها . وأمّا أسد بن عبدالله فصوابه على ما يظهر

أبو عبدالله ويكون المراد به أبا عبدالله أسد بن الفرات فهو الذي لقي محمّد بن الحسن وتفقه بأصحاب الامام أبي حنيفة ونشر مذهبه بافريقية وذلك بعد أن رحل الى الامام مالك وأخذ عنه ولم يصادفه عليلاً فأحاله على ابن وهب كما ذكروا بل قال له لما استزاده بعد فراغه من السماع منه حسبك ما للناس أو حسبك يا مغربيّ ان أحببت الرأي فعليك بالعراق .

وكان أهل مصر لا يعرفون هـذا المذهب حتّى ولّى قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفيّ من قبل المهديّ سـنة ١٦٤ وهو أوّل قاضٍ حنفيّ بمصر وأوّل من أدخل اليها مذهب أبي حنيفة وكان من خير القضاة الاّ أنّه كان يذهب الى إبطال الأحباس فثقل أمره على أهل مصر وقالوا أحدث لنا أحكاماً لا نعرفها ببلدنا فعزله المهديّ (١) . ثم فشا فيها بعد ذلك مدّة تمكّن العباسيّين الاّ أن القضاء بهـا لم يكن مقصوراً على الحنفيّة بل كان يتولاه الحنفيّون تارة والمالكيّون أو الشافعيّون أخرى (٢) الى أن استولى عليهـا الفاطميّون فأظهروا مذهب الشيعة الاسماعيليّة وولّوا القضاة منهم فقوي هـذا المذهب بالدولة وعمل بأحكامه الا أنه لم يقض على

(١) عن « طبقات الحنفية » المتقدم ذكرها و « رفع الاصر » للحافظ ابن حجر و « قضاة مصر » لعلى بن عبد القادر الطوخي . (٢) عن المقريزي .

المذاهب السنيّة في العبادات لأنهم كانوا يبيحون للرعية التعبّد بما يشاءون من المذاهب . قال في صبح الأعشى إنهم كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من اقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد [١] على مخالفة معتقدهم في ذلك ومذاهب مالك والشافعيّ وأحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه انتهى . قلنا بل قد أقام وزيرهم أبو عليّ احمد بن الأفضل بن أمير الجيوش قضاة من المالكية والشافعية لمّا حجر على الخليفة الحافظ لدين الله وسجنه فانّه اعلن بمذهب الامامية وأقام أربعة قضاة: اثنان شيعيّان أحدهما إماميّ والآخر اسماعيليّ ، واثنان سنيّان أحدهما مالكي والآخر شافعيّ ، فكان كلّ قاضٍ منهم يحكم بمذهبه ويورّث بمقتضاه . فلمّا قتل أبو عليّ عاد الأمر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية [٢] ، ويظهر لنا أن غضّ الفاطميين من المذهب الحنفي لم يكن الا لأنه مذهب الدولة العباسيّة المناوئة لهم في المشرق .

---

(١) وقع ان بعض خلفائهم كانوا يمنعون الناس من صلاة التراويح وعاقب احدهم شخصا وجد عنده الموطأ . فراد القلقشندي ما كان متبعا عندهم في الغالب (٢) عن المقريزي وغيره

ثم لما قامت الدولة الأيوبية بمصر وكان سلاطينها شافعية قضوا على التشيع فيها وأنشأوا المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية وكان نور الدين الشهيد حنفياً فنشر مذهبه ببلاد الشام ومنها كثرت الحنفية بمصر ، وقدم اليها أيضاً عدة من بلاد المشرق فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة ومازال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ ولكن لم يبلغ المذهب مبلغه في القوة والكثرة بمصر إلا في آخر هذه الدولة [1] وأول من رتب دروساً أربعة للمذاهب الأربعة في مدرسة واحدة الصالح نجم الدين ايوب في مدرسته الصالحية بالقاهرة سنة ٦٤١ [2] ثم كثر هذا النوع من المدارس في الدولتين التركية والچركسية وحدث في الأولى جعل القضاة أربعة فعاد الحنفية الى القضاء بعد انقطاعه عنهم مدة الفاطميين والاقتصار مدة الأيوبيين على نواب منهم ومن المالكية والحنابلة عن القاضي الشافعي . ثم لما استولى العثمانيون على مصر حصروا القضاء في الحنفية وأصبح الحنفي مذهب أمراء الدولة وخاصتها ورغب كثيرون من أهل العلم

---

(١) عن المقريزي

(٢) عن المقريزي وتحفة الاحباب للسخاوي

فيه لتولّي القضاء الا انّه لم ينتشر بين أهل الريف والصعيد [١]
انتشاره في المدن ولم يزل كذلك الى اليوم .

أما بدء دخوله في سائر البلاد الاسلامية فيعسر تعيينه لكل
بلد وغاية ما وقفنا عليه من انتشاره في القرن الرابع ماذكره المقدسي
في أحسن التقاسيم في كلامه على كل اقليم ومنه يعلم انه كان الغالب
على اهل صنعاء وصعدة باليمن والغالب على فقهاء العراق وقضاته
وكان منتشراً بالشام تكاد لا تخلو فيها قصبة او بلد من حنفي
وربما كان القضاة منهم ، الا ان اكثر العمل فيها كان على
مذهب الفاطمي في زمنه اي كما كان بمصر . وكان في اقليم
الشرق اي خراسان وسجستان وما وراء النهر وغيرها إلا في
بلاد منها ذكرها كان اهلها شافعية . وكان اهل جرجان وبعض
طبرستان من اقليم الديلم حنفية . وكان غالبا على اهل دبيل
من أقليم الرحاب الذي منه الران وارمينية واذربيجان وتبريز
وموجودا في بعض مدنه بلا غلبة . وكان غالبًا على أهل الري من
اقليم الجبال وكثيرا في اقليم خوزستان المسمى قديما بالاهواز [٢]

(١) كانوا قديما يعبرون بالريف عن الوجه البحرى وبالصعيد عن
الوجه القبلى لجاريناهم في ذلك .
(٢) هو المسمى الآن بالمحمرة .

وكان لهم به فقهاء وأئمة وكبراء . وكان باقليم فارس كثير من الحنفية الا ان الغلبة كانت في السنيين للظاهرية وكان القضاء فيهم . وكانت قصبات السند لاتخلو من فقهاء حنفية .

وفي معجم البلدان لياقوت ان أهل الري كانوا ثلاث طوائف : شافعية وهم الاقل وحنفية وهم الاكثر وشيعة وهم السواد الاعظم ثم فني أهل المذهبين وغاب الشافعية على ماسيأتي . وذكر أيضا أن أهل سجستان كانوا حنفية . وذكر ابن تغري بردي في المنهل الصافي أن ملوك بنجالة بالهند كانوا جميعاً حنفية . وسنذكر في الخاتمة مبلغ انتشار هذا المذهب اليوم في البلاد .

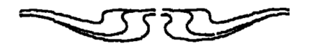
***

ويتبع الحنفية فى العقائد مذهب الامام أبي منصور محمد الماتريدي الحنفي وليس بين أصحابه وأصحاب الامام الاشعري خلاف الا في بضع عشرة مسألة . ومنهم أشعرية ولكن على قلة حتى قيل: من المستظرف أن يكون حنفي أشعريًا [1] . والذي في طبقات السبكى أن الحنفية أكثرهم أشاعرة أعني يعتقدون عقيدة الاشعري لايخرج منهم الا من لحق بالمعتزلة وذكر أنه تأمل عقيدة

---

(١) عن الكامل لابن الاثير والفوائد البهية .

الطحاوي التي زعم انهـا ما كان عليه الامام أبو حنيفة وصاحباه. فلم يجد فيها الا ثلاث مسائل خالف فيها الاشعرية ثم تصفح كتب الحنفية فوجد المسائل التى يخالفون فيها الاشعرية في العقائد ثلاث عشرة مسألة منها ست معنوية والباقى لفظي . قلنا وكانه يريد ان خلافهم في هذه المسائل لايخرجهم عن كونهم اشعرية وان تسموا بالماتريدية لتصريحه بعد ذلك بانها كالمسائل التي اختلف فيهـا الاشاعرة فيما بينهم ولأن المسائل الثلاث عشرة لم تثبت جميعها عن الشيخ ولا عن الامام ابي حنيفة .



المذهب المالكي

نسبة الى الامام مالك بن انس الاصبحي رضي الله عنه.
المولود سنة ٩٣ على الاشهر والمتوفى بالمدينة سنة ١٧٩ على الصحيح
وهو ثانى الاربعة في القدم ويقال لاصحابه اهل الحديث واختص.
امامه بمدرك آخر للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل.
أهل المدينة [١] .

نشأ بالمدينة موطن الامام ثم انتشر في الحجاز وغلب عليه
وعلى البصرة ومصر وما ولاها من بلاد إفريقية والأندلس
وصقلية والمغرب الأقصى الى بلاد من أسلم من السودان . وظهر
ببغداد ظهوراً كثيراً ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع وضعف
بالبصرة بعد الخامس وغلب في خراسان على قزوين وأبهر وظهر
بنيسابور أولا وكان له بها وبغيرها أئمة ومدرسون . وكان ببلاد.
فارس وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام [٢] وكان خمل بالمدينة
فلما تولى قضاءها ابن فرحون سنة ٧٩٣ أظهره بعد خموله [٣]

وأول من قدم به الى مصر على ما فى خطط المقريزى عبد
الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح ثم نشره بها عبد .

---

(١) عن ابن خلدون . (٢) عن الديباج : (٣) عن نيل الابتهاج

الرحمن بن القاسم فاشتهر بها أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بها ولم يكن مذهب أبي حنيفة يعرف بمصر ، ويوافقه ما في الاوائل للسيوطي ولكنه ذكر في حسن المحاضرة نقلا عن الديباج أنه عثمان بن الحكم الجذامي ، وعبارة الديباج « مشهور من أصحاب مالك المصريين وهو أول من أدخل علم مالك بمصر ، ولم تنبت مصر أنبل منه » الى أن قال وتوفي سنة ١٦٣ ، وكلا القولين صحيح ففي ترجمة عثمان الجذامي من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ما نصه « وقال ابن وهب أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد » انتهى فالظاهر أنهما بعد أن أتما الاخذ عن الامام عادا معا الى مصر ونشرا بها علمه

وفي خطط المقريزي أن هذا المذهب ما زال معمولا به بمصر مع الشافعي ويولى القضاء من يذهب اليهما أو الى مذهب أبي حنيفة الى أن قدم القائد جوهر فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به في القضاء والفتيا وأنكر ماخالفه . قلنا ثم عاد الى الانتعاش في الدولة الايوبية وبنيت لفقهائه المدارس ثم عمل به في القضاء استقلالا لما أحدث الظاهر بيبرس في الدولة التركية

البحرية القضاة الاربعة وضار قاضيه الثاني في المرتبة بعد الشافعي. وكان القضاء في الايوبية للشافعية ولقاضيهم نواب من المذاهب الثلاثة . ولم يزل منتشراً بمصر الى الآن معادلا للشافعي . وأكثر انتشاره في الصعيد

وكان الغالب على أهل إفريقية السنن ثم غلب الحنفي كما تقدم فلما تولى عليها المعز بن باديس سنة ٤٠٧ حمل أهلها وأهل ماولاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وحسم مادة الخلاف في المذاهب [١] فاستمرت له الغلبة عليها وعلى سائر بلاد المغرب وفي ذلك يقول مالك بن المرحل المالكي شاعر المغرب :

مذهبي تقبيل خدّ مُذْهَب   سيّدي ماذا ترى في مذهبي
لاتخالف مالكاً في رأيه   فعليه جلّ أهل المغرب [٢]

وهو الغالب على هذه البلاد الى اليوم . وذكر الفاسىّ فى العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين أن المغاربة كلهم مالكية إلا النادر ومنهم من ينتحلون الأثر .

وكان الغالب على أهل الأندلس مذهب الأوزاعى وأول من أدخله بها صعصعة بن سلام لما انتقل اليها وبقى بها الى زمن

---

(١) عن ابن الاثير وابن خلكان ومواسم الادب
(٢) عن كناش ابن مفلح

الأمير هشام بن عبد الرحمن [١] . ثم انقطع مذهب الأوزاعي منها بعد المائتين وغلب المالكي [٢] ، وفي نيل الابتهاج أن أهل الاندلس التزموا مذهب الاوزاعي حتى قدم عليهم الطبقة الاولى ممن لقى الامام مالكا كزياد بن عبد الرحمن والغازي ابن قيس وقرعوس ونحوهم فنشروا مذهبه وأخذ الأمير هشام الناس به فالتزموه وحملوا عليه بالسيف إلا من لا يؤبه له

وفي بغية الملتمس للضبي أن هذا المذهب انتشر بالاندلس بيحيي بن يحيى بن كثير وتفقه به جماعة لا يحصون وتوفى سنة ٢٣٤ وقيل ٢٣٣ . وفي خطط المقريزي والديباج لابن فرحون أن أول من أدخله بالاندلس زياد بن عبد الرحمن القرطبي الملقب بشبطون قبل يحيى بن يحيي وكانت وفاة زياد سنة ثلاث وقيل أربع وقيل تسع وتسعين ومائة [٣] . وفي نفح الطيب تفصيل لذلك ملخصه أن جماعة من أمثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى ابن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم رحلوا الى الحج في زمن هشام بن عبد الرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل

---

(١) عن بغية الملتمس

(٢) عن الديباج

(٣) زاد في نفح الطيب وقيل أربع ومائتين

مالك وسعة علمه وجـلالة قدره ماعظم به صيته بالاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالاندلس وكان رائد الجماعة شبطون وهو أول من أدخل الموطأ الى الاندلس مكملا متقناً ، فاخذه عنه يحيى بن يحيى ، ثم أشار على يحيى بالرحيل الى مالك فرحل وأخذ عنه فكان انتشار المذهب به وبزياد وبعيسى بن دينار . وقال في موضع آخر: ان سبب حمل ملك الاندلس الناس على هذا المذهب في بعض الاقوال أن الامام مالكا سأل عن سيرته بعض الاندلسيين فذكروا له عنها ما أعجبه فقال : نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم أو كلاماً هذا معناه وذلك لان سيرة بني العباس لم تكن مرضية عنده ولقي منهم مالقى مماهو مشهور . فلما بلغ قوله ملك الاندلس مع ماعلم من جلالة مالك ودينه حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعي قلنا وقد ذكر هذا السبب ابن نباتة أيضاً في سرح العيون الا أنه جعل ذلك في زمن عبد الرحمن الداخل والذي أجمع عليه المؤرخون أن دخول المذهب كان في زمن ابنه هشام .

ثم زاد انتشار هذا المذهب بالاندلس وبالمغرب بانتقال الفتيا اليه في دولة الحكم بن هشام وكان يحيى بن يحيى بن كثير مكيناً

عنده مقبول القول فصار لايولي القضاء الا من أشار به فانتشر به مذهب مالك كما انتشر الحنفي بأبي يوسف في المشرق [1]

وعلل ابن خلدون غلبة هذا المذهب على المغرب والاندلس تعليلا آخر فقال « أما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم إلا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبًا الى الحجاز وهومنتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته، وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضًا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب » انتهى . قلنا وتقدم في الكلام على الحنفي شيء عن سبب انقطاعه بالاندلس وغلبة المالكي فيما رواه المقدسي .

---

(١) عن المقريزي وبغية الملتمس ونفح الطيب .

ولما قامت دولة بنى تاشفين بالمغرب الأقصى في القرن الخامس واستولوا على الأندلس وتولى ثانيهم أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين اشتد ايثاره لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء وألزم القضاة بأن لا يبتوا حكومة في صغير الأمور وكبيرها الا بمحضر أربعة من الفقهاء فعظم أمر الفقهاء ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك فنفقت في زمنه كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد يعتنى بهما كل الاعتناء[1] ثم لما دالت دولتهم واستولى الموحدون على مملكتهم في أوائل القرن السادس سلك خليفتهم عبد المؤمن بن علي هذا المسلك فجمع الناس بالمغرب على مذهب مالك في الفروع ومذهب أبي الحسن الاشعري في الاصول[2] وكان مقصده في الباطن هو وابنه يوسف محو المذهب المالكي وحمل الناس على العمل بظاهر القرآن والحديث ولكنهما لم يتمكنا من ذلك[3] فلما تولى حفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

---

(١) عن المعجب للمراكشي
(٢) عن كامل ابن الاثير
(٣) عن المعجب للمراكشي

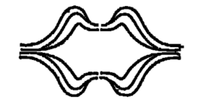
تظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية نسبة لابن حزم رئيسهم الا أنهم كانوا مغمورين بالمالكية فظهروا وانتشروا في أيام يعقوب ثم في آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال اليهم (١) . قال المراكشي في المعجب : وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن يجرد مافيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدوّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره والتهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب . ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق فيها النار ثم أمر بجمع أحاديث من الصحيحين والترمذى والموطأ وسنن أبى داوود والنسائيّ والبزار والدارقطنى والبيهقى ومسند ابن أبى شيبة فى الصلاة وما يتعلق بها ، فكان يملي هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ويجعل لمن يحفظه الجعل السني من الكُسَى والاموال. انتهى ملخصاً

---

(١) من كامل ابن الاثير

وكان في القرن الرابع بالعراق والاهواز ومنتشراً بمصر وبلاد المغرب وغالباً على الاندلس على ماذكره المقدسي في أحسن التقاسيم .

ويتبع المالكية في الاصول عقيدة أبي الحسن الاشعري بحيث لايرى مالكي الا أشعريا كما في الطبقات ومعيد النعم للتاج السبكي .



المذهب الشافعي

نسبة الى الامام محمد بن إدريس الشافعي القرشي رضي الله عنه المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفى بمصر سنة ٢٠٤ وكان آية في الفهم والحفظ واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره . ومذهبه ثالث الأربعة في القدم ويقال لأصحابه أهل الحديث كالمالكية[١] بل كان اصطلاح أهل خراسان اذا أطلقوا « أصحاب الحديث » لايعنون إلا الشافعية[٢] . وهو ممن أخذ عن الامام مالك ثم استقل بمذهب خاص قال ابن خلدون رحل الى العراق بعد مالك ولقي أصحاب الامام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكاً رحمه الله في كثير من مذهبه .

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهوره كان أولاً بمصر وكثر أصحابه بها ، ثم ظهر بالعراق وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان وتوران والشام واليمن ودخل ماوراء النهر وبلاد

---

(١) عن ابن خلدون وطبقات السبكي .

(٢) عن طبقات السبكي .

فارس والحجاز وبعض بلاد الهند ودخل شيء منه افريقية والاندلس بعد سنة ٣٠٠ [1].

وكان الغالب على أهل مصر الحنفي والمالكي كما تقدم، فلما قدم اليها الامام الشافعي انتشر بها مذهبه وكثر [2] قال ابن خلدون. وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره. وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحارث ابن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى أن

---

(١) عن الديباج والفوائد البهية.

(٢) قال علي بن عبد القادر الطوخي في كتابه (قضاة مصر): ان عيسى بن المنكدر قاضي مصر صاح في وجه الامام الشافعي فقال: دخلت هذه البلدة وأمرها واحد ورأيها واحد ففرقت بينهم. يشير الى مخالفة متبعيه لاصحاب مالك فان أهل مصر قبل وجود الشافعي كانوا لا يعرفون الا رأي مالك. انتهى. وفيه نظر لان الحنفي كان معروفا أيضا عندهم.

ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه، واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين ابن عبد السلام أيضاً ثم ابن الرفعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي بعدهما الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر وكبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر. انتهى.

ولما أخذت الدولة الأيوبية في انعاش مذاهب السنة بمصر ببناء المدارس لفقهائها وغير ذلك من الوسائل جعلت للشافعي الحظ الأكبر من عنايتها فخصت به القضاء لكونه مذهب الدولة وكان بنو أيوب كلهم شافعية إلا المعظم عيسى بن العادل أبى بكر سلطان الشام فانه كان حنفياً ولم يكن فيهم حنفي سواه وتبعه أولاده [1] وكان متغالياً في التعصب لمذهبه ويعده الحنفية من فقهائهم ألف شرحاً على الجامع الكبير في عدة مجلدات وله السهم المصيب في الرد على الخطيب البغدادي فيما نسبه للامام أبي حنيفة

---

(١) عن ابن خلكان.

في تاريخ بغداد [١] ثم لما خلفتها دولة الترك البحرية وكان سلاطينها شافعية أيضاً [٢] استمر العمل في القضاء على ذلك حتى أحدث الظاهر بيبرس القضاة الاربعة فكان لكل قاض التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب واجلاس الشهود وميز الشافعي باستقلاله بتولية النواب في سائر بلاد القطر لايشاركه فيها غيره كما أفرد بالنظر في مال الايتام والاوقاف [٣] وكانت له المرتبة الاولى بينهم ثم يليه المالكي فالحنفي فالحنبلي [٤] ثم استمر الأمر على ذلك في الدولة الجركسية حتى استولى العثمانيون على مملكتهم فأبطلوا القضاة الأربعة وحصروا القضاء في الحنفي لأنه مذهبهم ولم يزل مذهب الدولة الى اليوم إلا أن ذلك لم يؤثر في انتشار الشافعي والمالكي بين الاهلين لسابق تمكنهما وانتشارهما بينهم فبقيا غالبين على الريف والصعيد والشافعي أغلب على الريف

---

(١) عن الفوائد البهية .

(٢) كان سيف الدين قطز المتولى قبل بيبرس حنفيا ولكن لم يؤثر ذلك في مذهب الدولة لقصر مدته وزعم السيوطى في حسن المحاضرة أنه لم يعرف فيهم غير شافعي سواه .

(٣) و (٤) عن صبح الاعشى . وذكر ابن بطوطة ان ترتيبهم بعصر مدة الملك الناصر كان بتقديم الحنفي على المالكي فلما ولي القضاء برهان الدين ابن عبد الحق الحنفي اشار الامراء على الملك الناصر بجلوس المالكي فوقه كما جرت بذلك العادة القديمة فعمل باشارتهم واستمر الأمر على ذلك .

المعبر عنه بالوجه البحري . وكانت شياخة الازهر - وهي رئاسة العلماء الكبرى - محصورة في علمائه من سنة ١١٣٧ [١] الى أن تولاها من الحنفية الشيخ محمد المهدي العباسي سنة ١٢٨٧ مضافة الى الافتاء فلم تنحصر بعد ذلك في مذهب من المذاهب ولكن لم يتولها حنبلي لقلتهم بمصر

وكان الغالب على أهل الشام مذهب الاوزاعيّ حتى ولي قضاء دمشق بعد قضاء مصر أبو زُرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعيّ فأدخل اليها مذهب الشافعيّ وحكم به وتبعه من بعده من القضاة وهو أوّل من أدخله الشام وكان يهب لمن يحفظ مختصر المزنيّ مائة دينار وتوفى سنة احدى أو اثنتين أو ثلاث وثلاثمائة [٢]. وذكر المقدسي في أحسن التقاسيم أن الفقهاء باقليم الشام في زمنه أى في القرن الرابع كانوا شافعية. قال ولا ترى به مالكيًا ولا داوديّا .

---

(١) أول من استطعنا معرفته ممن تولى شياخة الإزهر الشيخ محمد الخرشي المتوفى سنة ١١٠١ وكان مالكيا وتولاها بعده الشيخ ابراهيم بن محمد البرماوي الشافعي وتوفي سنة ١١٠٦ ثم انحصرت بعده في المالكية الى سنة ١١٣٧ فانتقلت الى الشافعية .

(٢) عن رفع الاصر والاعلان بالتوبيخ والثغر البسام في قضاة الشام لابن طولون .

وفي طبقات السبكي والاعلان بالتوبيخ للسخاوي أن هذا المذهب انتشر بما وراء النهر بمحمد بن اسماعيل القفّال الكبير الشاشي وتوفى سنة ٣٦٥ . وذكر المقدسي أنه كان الغالب على كثير من البلدان في اقاليم المشرق ككورة الشاس وايلاق وطوس ونسا وأبيورد وغيرها وكان بهراة وسجستان وسرخس ونيسابور ومرو الى آخر ماذكره . وذكر أن سجستان وسرخس كانت تقع فيهما عصبيّات بين الشافعية والحنفيّة تراق فيها الدماء ويدخل بينهم السلطان . وذكر عن اقليم الديلم أن أهل قومس وأكثر أهل جرجان وبعض طبرستان كانوا حنفية والباقون حنابلة وشافعية . وكان لايرى ببيار صاحب حديث الا شافعيّا . وذكر عن اقليم القور الذي من بلاده الموصل وآمد الخ انتشار الحنفي والشافعي فيه قال وفيه حنابلة وذكر أن الشافعي كان الغالب على اقليم كرمان .

وفي الاعلان بالتوبيخ أن الحافظ عبدان بن محمد بن عيسى المروزي هو الذي أظهر مذهب الشافعي بمرو وخراسان بعد أحمد ابن سيّار وكان السبب في ذلك أن ابن سيار حمل كتب الشافعي الى مرو وأعجب بها الناس فنظر عبدان في بعضها وأراد أن ينسخها

فلم يمكنه ابن سيار فباع ضيعة له وخرج الى مصر فأدرك الربيع وغيره من أصحاب الشافعي فنسخ كتب الشافعي ورجع الى مرو وابن سيار حيّ ومات عبدان سنة ٢٩٣ . وذكر أيضا أن أباعوانة يعقوب بن اسحاق النيسابورى الاسفراينى صاحب الصحيح المستخرج على مسلم أول من أدخل مذهب الشافعي وتصانيفه الى اسفراين وهو ممن أخذ عن الربيع والمزني ومات سنة٣١٦.الى أن قال: وأبو اسماعيل محمد بن اسماعيل بن يوسف السلمي الترمذي هو الذي حمل كتب الشافعي من مصر فانتسخها اسحاق بن راهويه وصنف عليها (الجامع الكبير) لنفسه وهو ممن روى عن البويطى ومات سنة ٢٨٠ ، وعن ابن سريج انتشر مذهب الشافعى في أكثر الآفاق .

وفي معجم البلدان لياقوت أن أهل الريّ كانوا ثلاث طوائف شافعية وهم الاقل وحنفية وهم الاكثر وشيعة وهم السواد الاعظم فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتضافر عليهم الحنفية والشافعية وتطاولت بينهم الحروب حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف . ثم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية فكان الظفر للشافعية مع قلتهم فخربت محالّ الشيعة والحنفية وبقيت محلة الشافعية وهى اصغر محال الري ولم يبق من الشيعة والحنفية الاّ من يخفي مذهبه.

وذكر في كلامه على ساوة التي بين الري وهمذان أن أهلها كانوا سنية شافعية وكان بقربهـا مدينة يقال لها آوة. أهلها شيعة إمامية فكانت تقع بينهم العصبية .

وفي الكامل لابن الاثير في حوادث سنة ٥٩٥ مانصه :

« وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية [١] وصار شافعي المذهب . وكان سبب ذلك أنه كان عنده انسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفنناً في كثير من العلوم فأوصل الى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المرورذي الفقيه الشافعي فأوضح له مذهب الشافعي وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعياً وبنى المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا وأكثر مراعاتهم ، فسعى الكرامية في أذى وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك . وقيل

---

(١) نسبة الى محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ وقد اختلفوا في ضبط كرام فقيل بتخفيف الراء وكسر الكاف أو فتحها وقيل بفتح الكاف وتشديد الراء . وكان محمد صاحب مذهب في العقائد معروف الا أن المقريزي ذكر في خططه انه انفرد في الفقه أيضا بأشياء منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان وأجاز الصلاة في ثوب مستغرق في النجاسة وزعم أن العبادات تصح بغير نية وتكفي نية الاسلام الى آخر ما ذكره مما يدل على أنه صاحب آراء في الفروع ومنه يعلم معنى انتقال غياث الدين من هذا المذهب الى المذهب الشافعي .

ان غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما ان الناس في جميع البلدان يزرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأي أن تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل ان شهاب الدين كان حنفياً والله أعلم » .

وكان الحنفي غالباً على بغداد كما قدمنا ثم زاحمه فيها الشافعى وكانت له كثرة ومع أن الحنفي كان مذهب الدولة لم يمنع ذلك من تقليد بعض الخلفاء للشافعى كما فعل المتوكل وهو أول من فعل ذلك منهم [1] . وكان الحسن بن محمد الزعفراني من رواة القديم عن الشافعي أحد من نشره فيها وتوفي سنة ٢٦٠ قال السخاوى في الاعلان بالتوبيخ « حج الربيع بن سليمان سنة اربعين ومائتين فالتقى مع أبى على الحسن بن محمد الزعفراني بمكة فسلم أحدهما على الآخر فقال الربيع ياأبا عليّ أنت بالمشرق وأنا بالمغرب نبث هـذا العلم يعني علم الشافعى » انتهى يريد بالمغرب مصر لأنها كذلك بالنسبة لبغداد . وفى طبقات السبكي أن بنى أبى عقامة هم الذين نشر الله بهم مذهب الشافعى فى تهامة .

هذا ما انتهى الينا علمه عن انتشار هذا المذهب بمصر وسائر بلاد المشرق وأما المغرب فلم يكن حظه منها كبيراً لغلبة المالكى

(١) من محاضرة الاوائل

على بلاده حتى زعم المقدسي في أحسن التقاسيم انهم كانوا بسائر المغرب على عهده الى حدود مصر لا يعرفونه وأنه ذاكر بعضهم مرة في مسألة فذكر قول الشافعي فقال : من الشافعي ؟ انما كان أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لأهل المغرب. قال ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي ويقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه. وقال عن القيروان ليس في أهلها غير حنفي ومالكي مع الفة عجيبة لاشغب بينهم ولا عصبية . وقال عن الاندلس ليس بها الامذهب مالك فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه . وفي الكامل لابن الاثير أن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بعد أن تظاهر بمذهب الظاهرية مال الى الشافعية في آخر أيامه واستقضاهم على بعض البلاد .

ويتبع غالب الشافعية في الاصول مذهب أبي الحسن الاشعري قال التاج السبكى في الطبقات إن غالبهم أشاعرة لا يستثني الا من لحق منهم بتجسيم أو اعتزال ممن لا يعبأ الله به .



المذهب الحنبلي

نسبة الى الامام أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه المولود
ببغداد سنة ١٦٤ والمتوفى بها سنة ٢٤١ وقيل ولد بمرو وحمل الى
بغداد رضيعاً . ومذهبه رابع المذاهب السنيةالمعمول بها عندجمهور
المسلمين . وكان من خواص أصحاب الامام الشافعى أخذ منه ولم
يزل مصاحبه الى ان ارتحل الشافعى الى مصر . وكان منشأ هـذا
المذهب ببغداد ثم شاع في غيرها ولـكن دون شيوع باقي المذاهب[١]
قال ابن فرحون في الديباج « وأما مذهب أحمد بن حنبل رحمه
الله فظهر ببغداد ثم انتشر بكثير من بلاد الشام وضعف الآن »
أي في القرن الثامن . وقال ابن خـلدون « وأما أحمد بن حنبل
فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية
وللاخبار بعضها ببعض . وأ كثرهم بالشام والعراق من بغـداد
ونواحيها وهم أ كثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث »

وقد تأخر ظهوره بمصر ظهوراً بيّنا الى القرن السابع وعلله
السيوطيّ في حسن المحاضرة بقوله « وهم بالديار المصرية قليل

(١) عن الفوائد البهية

جـداً ولم أسمع بخبرهم فيها الا في القرن السابع وما بعده وذلك أن الامام أحمد رضي الله عنه كان في القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق الا في القرن الرابع وفي هذا القرن ملك العبيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلا و نفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزولوا منهـا إلا في أواخر القرن السادس فتراجعت اليها الأئمة من سائر المذاهب . وأول امام من الحنابلة علمت حلوله بمصر الحافظ عبـد الغنى المقدسي صاحب العمدة » انتهى . وذكر المقريزي في خططه أنه لم يكن له وللمذهب الحنفى كبير ذكر بمصر في الدولة الايوبية ولم يشتهر الا في آخرها انتهى . ثم زاد انتشاره بها بعـد ذلك في زمن القاضي عبد الله بن محمد بن عبـد الملك الحجاوي المتولى قضاء قضاة الحنابلة بمصر سـنة ٧٣٨ والمتوفى سنة ٧٦٩ كما فى السبل الوابلة (١) .

وذكر المقدسي أنه كان موجوداً في القرن الرابع بالبصرة وباقليم أقور والديلم والرحاب وبالسوس من أقليم خوزستان وأن الغلبة في بغداد كانت له وللشيعة . وذكر في كلامه على مصر أن الفتيا في زمنه كانت فيها على مذهب الفاطمى الا أن سـائر

(١) السبل الوابلة على ضرائح الحنابلة لمحمد بن حميد المكي وهو فى طبقاتهم

المذاهب كانت موجودة ظاهرة بالفسطاط قال وثم محلّة الكرامية وجلبة للمعتزلة والحنبلية . قلنا ومهما يكن من انتشاره في كثير من البلدان فان مقلديه فيها قليلون في كل عصر والى ذلك يشير الخفاجي في الريحانة في ترجمة زين الدين محمد الانصاري الخزرجي بقوله « تفقه على مذهب احمد بن حنبل . فكان اطلابه سهل المورد عذب المنهل . (وللناس فيما يعشقون مذاهب) وهم في كل عصر أقل من القليل . وهكذا الكرام كما قيل :

يقولون لي قد قلّ مذهب أحمد   وكل قليل في الأنام ضئيل
فقلت لهم مهلا غلطتم بزعمكم   ألم تعلموا أن الكرام قليل
وماضرّنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الاكثرين ذليل »

انتهى . ولم نسمع له بغلبة على ناحية الا على البلاد النجدية الآن وعلى بغداد في القرن الرابع ، واستفحل أمره بها حوالي سنة ٣٢٣ قال ابن الاثير في حوادث هذه السنة « وفيها عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذاً أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومَشْيِ الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو فأخبرهم والا ضربوه

وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فارهجوا بغداد فركب بدر الخرشني وهو صاحب الشرطة عاشر جمادى الآخرة ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري الحنابلة ألاَّ يجتمع منهم اثنان ولا يتناظرون في مذهبهم » الى أن قال « فلم يفد فيهم وزاد شرّهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم » الى آخر ما ذكره . ولا ريب في أن اثارة امثال هذه الفتن لم تكن الا من عصبية عامتهم وغوغائهم وكثيراً ما كانت ترجع الى امور اعتقادية يخالفهم غيرهم فيها لانفراد اصحاب هذا المذهب بعقيدة خاصة في الاصول . وذكر التاج السبكي في الطبقات ان اكثر فضلاء متقدميهم كانوا اشاعرة لم يخرج منهم عن عقيدة الاشعري الا من لحق بأهل التجسيم قال وهم في هذه الفرقة من الحنابلة أكثر من غيرهم



الخاتمة

اخذت المذاهب الاربعة تتغلب مع الزمن وغيرُها من المذاهب السنية يدرس حتى اذا كان القرن السابع تم لها التغلب والتمكن وافتى الفقهاء بوجوب اتباعها فدرس ماعداها الا بقايامن الظاهري بقيت في بعض البلاد الى القرن الثامن ثم درست كما قدمنا . قال المقريزي « فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ولي بمصر [1] والقاهرة اربعة قضاة وهم شافعي ومالكيّ وحنفيّ وحنبليّ ، فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة حتى لم يبق في مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب اهل الاسلام سوى هذه المذاهب الاربعة وعقيدة الاشعري وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام وعودي من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ولم يول قاض ولاقبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس احد مالم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب وافتى فقهاء هذه الامصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها

---

(١) المراد بمصر الفسطاط وكانت منفصلة عن القاهرة ثم اتصلت بها بعد ذلك وصارت قسما من اقسامها يعرف اليوم بقسم مصر العتيقة

والعمل على هذا الى اليوم » انتهى . ولا ريب في ان المراد عند جمهور المسلمين ، والا فمذهب الاباضية كان ولم يزل معمولا به في بلادهم شرقا وغربا وفقه الشيعة معمول به في فارس وغيرها من البلدان . وفي قوله « وعقيدة الاشعري » نظر لأن الحنفية يتبعون في الاصول عقيدة الماتريدي الا ان يكون عدهم من الاشعرية بالمعنى الذي اراده التاج السبكي وسبق لنا بيانه . وكأنه لم يعتد بالحنابلة لقلتهم مع أن لهم عقيدة خاصة كما قدمنا .

ولنختم هذا البحث بمبلغ انتشار هذه المذاهب الآن عند جمهور المسلمين مستندين في الكثير منه على مصادر افرنجية لقلة الموجود منها بالعربية فنقول : الغالب على المغرب الاقصى الآن المذهب المالكي وهو الغالب أيضا على الجزائر وتونس وطرابلس لاتكاد تجد فيها من مقلدي غيره الا الحنفية بقلة وهم من بقايا الأسر التركية وأكثرهم في تونس ومنهم أفراد بيت الامارة بها ولذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركا للقضاء المالكي وأما سائر أعمالها فقضاتها مالكية وفي الحاضرة كبيرا المفتين وهما الحنفي ويلقب بشيخ الاسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع والمالكي وله المقام الثاني وقد تساهلوا الآن في تلقيبه بشيخ

الاسلام أيضا . ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفى فان من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرّسي جامع الزيتونة حنفية والنصف مالكية . وانما امتاز الحنفى بذلك لكونه مذهب الاسرة المالكة

ويغلب في مصر الشافعي والمالكي الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة والمتبع في الفتوى والقضاء والحنبلي قليل بل نادر . ويغلب الحنفي في بلاد الشام يكاد يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية والربع حنابلة . ويغلب الشافعي على فلسطين ويليه الحنبلي فالحنفي فالمالكي ويغلب الحنفي على العراق ويليه الشافعى وبه مالكية وحنابلة . والغالب على الاتراك العثمانيين والالبان وسكان بلاد البلقان الحنفى وعلى بلاد الاكراد الشافعى وهو الغالب على بلاد أرمينية لأن مسلميها من أصل تركمانى أو كردي · والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية . والغالب على بلاد الافغان الحنفى ويقل الشافعى والحنبلي . وعلى تركستان الغربية التى منها بخارى وخيوة الحنفى وأما تركستان الشرقية المسماة أيضاً بالصينية فكان الغالب عليها الشافعى ثم تغلب الحنفى بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى . والغالب على بلاد القوقاز وما والاها الحنفى

وفيهم شافعية .

والغالب في الهند الحنفي ويقدر اتباعه بنحو ٤٨ ألف ألف وأتباع الشافعي بنحو ألف ألف ويكثر بها أهل الحديث والآثار وفيها مذاهب أخرى مما لم نتعرض لذكره. ومسلمو جزيرة سرنديب (سيلان) وجزائر الفلبين والجاوة وما جاورها من الجزائر شافعية وكذلك مسلمو سيام ولكن بها حنفية بقلة وهم النازحون اليها من الهنود . ومسلمو الهند الصينية شافعية وكذلك مسلمو استرالية . وفي البرازيل من أميركة نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية وفي البلاد الاميركية الأخرى مسلمون مختلفو المذاهب وتبلغ عدّة الجميع نحو ١٤٠ ألفًا

والغالب على الحجاز الشافعي والحنبلي وفيه حنفية ومالكية في المدن وأهل نجد حنابلة وأهل عسير شافعية والسنيون في اليمن وعدن وحضرموت شافعية أيضا وقد يوجد بنواحي عدن حنفية . والغالب على عُمان مذهب الاباضية ولكنها لاتخلو من حنابلة وشافعية . ويغلب على قَطَر والبحرين المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد . والغالب على أهل السنة في الاحساء الحنبلي والمالكي . والغالب على الكويت المالكي والله أعلم .

مطبوعات

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

الميسر والقداح ـ لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ـ في ١٧٣ صفحة باوله اوسع ترجمة لابن قتيبة وبآخره خمس فهارس . ثمنه ٨ قروش

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . لابى عبيد الله المرزُبانى المتوفّى سنة ٣٨٤ هـ ـ في ٤٨٠ صفحة كبيرة بأوله ترجمة المؤلف وبآخره فهارس مطوّلة . ثمنه ٢٥ قرشا

مقدمة الحضارات الاولى ـ لغُستاف لوبون . هو بالنسبة الى تاريخ الامم القديمة بمنزلة مقدمة ابن خلدون بالنسبة الى تاريخ الامم الاسلامية * ١٢٧ صفحة كبيرة . ثمنه ٨ قروش

قميص من نار ـ لخالدة أديب . تمثل قيام الترك بعد الهدنة لتخليص بلادهم من احتلال الاجانب . عرّبها السيد محب الدين الخطيب . في ٢٠٨ صفحات كبيرة ثمنها ٥ قروش

أحكام القرآن للجصاص المتوفّى سنة ٣٧٠ . في ٣ مجلدات (اكثر من ٢٠٠٠ صفحة كبرى) ثمنه ٦٠ قرشا

التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن . للشيخ طاهر الجزائري في ٢٨٠ صفحة ثمنه ١٠ قروش

الفية السيوطي في مصطلح الحديث . في ٧٩ صفحة ثمنها قرشان

الفريدة ألفية للسيوطي في النحو . في ٧٨ صفحة ثمنها قرشان

الفقه و التصوف . ثلاث رسائل في هذا الموضوع للمرحوم السيد عبد الحميد الزهراوي . في ٦٤ صفحة . ثمنها قرشان

الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع
للسيوطي . في ١٠٠ صفحة ثمنها قرشان

النظم المفيد الاحمد فيما انفرد به مذهب
الامام أحمد عن بقية المذاهب . ارجوزة نظمها قاضي القضاة
محمد ابن علي العمري المتوفى سنة ٨٢٠ . في ٨٠ صفحة
ثمنها قرشان

تاريخ العرب والاسلام . جزءان في
٤٢٠ صفحة . مزين بالصور والخرائط . منسق تنسيقا
متقنا ثمنه ١٥ قرشا

تاريخ نجد للسيد محمود شكري الآلوسي .
في ١٢٠ صفحة ثمنه ٦ قروش

أربعون حديثا لشيخ الاسلام ابن تيمية
عن أربعين من شيوخه . مصحح بعناية عظيمة وبآخره
فهارس مهمة . في ٥٠ صفحة ثمنه ٣ قروش

المغني عن الحفظ فيما لم يصح فيه شيء من الاحاديث لابن بذر الموصلي المتوفى سنة ٦٢٣ · في ٥٠ صفحة ثمنه ٤ قروش

علل الحديث. لابن أبي حاتم. تم طبع نصفه الاول في ٥٠٠ صفحة ثمنه ٢٥ قرشا

اصلاح المساجد من البدع والعوائد لعلاّمة الشام المرحوم السيد جمال الدين القاسمي. في ٣٢٠ صفحة ثمنه ١٢ قرشا

محاسن الشام ـ للبدري من علماء القرن التاسع في ٤٠٠ صفحة ثمنه ١٠ قروش

الصاحبي ـ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابي الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥. في ٢٧٢ صفحة. ثمنه ٨ قروش

الحنين الى الاوطان لابي عثمان الجاحظ في ٤٠ صفحة ثمنه ٣ قروش

أسباب حدوث الحروف - للرئيس أبي علي بن سينا . بحث طبيعي لغوي في كيفية حدوث الصوت وتموجاته . وفي صفة مخارج الحروف . وبحث طبي في تشريح الحنجرة . اللسان . ثمنها قرشان

أدب الكتاب . لابي بكر الصولي . في ٢٧٢ صفحة : ثمنه ١٢ قرشا

تلخيص أدب الكتاب . الاصل لابن قتيبة . والتلخيص للشيخ طاهر الجزائري . في ٢٠٦ صفحات ثمنه ١٠ قروش

الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثر . للسيد محمود شكري الآلوسي . في ٣٤٦ صفحة ثمنه ١٥ قرشاً

تصحيح القاموس المحيط — لحضرة صاحب السعادة العلامة أحمد تيمور باشا . في ٤٩ صفحة كبيرة ثمنه ٤ قروش

تصحيح لسان العرب . لسعادة الاستاذ أحمد تيمور باشا في جزءين ثمن كل واحد ٥ قروش

سيرة عبد الكريم تتضمن تفصيل اعمال بطل الريف محمد بن عبد الكريم في حربه مع اسبانيا وفرنسا وترجمة حياته وأحوال بلاده مزينة بخريطة دقيقة وصور . في ٩٢ صفحة بالقطع الكامل ثمنها ٥ قروش

نشيد سعد باشا زغلول . مجموعة أدب حافلة بقلم الشاعر الكبير السيد مصطفى صادق الرافعى في ٦٦ صفحة ثمنه قرش ونصف

تاريخ الموصل من أقدم الازمان الى الآن في ٣٦٠ صفحة مزين بالصور ثمنه ٢٥ قرشا

الحكومة المصرية في الشام — بقلم العلامة الاستاذ السيد محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق . في تاريخ حروب محمد على باشا والادارة المصرية فى الشام . في ٥٢ صفحة ثمنها قرشان

حياة ابن خلدون — للاستاذ العلامة السيد محمد الخضر التونسى . في ٤٨ صفحة ثمنها قرشان

